محاضرة في العقيدة

ألقيت على مجموعة من طلبة الجامعات والمعاهد

بتاريخ: (٨ / ج١ / ١٤٣٨ هـ - ٦ / ٢ / ٢٠١٧ م)

السيّد محمّد باقر السّيسْتاني

محاضرة في العقيدة

ألقيت على مجموعة من طلبة الجامعات والمعاهد

بتاريخ: (٨ / ج١ / ١٤٣٨ هـ - ٦ / ٢ / ٢٠١٧ م)

السيد محمد باقر السيستاني

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على جميع الأنبياء والمرسلين لاسيما (محمد) وآله الطاهرين.

يسرني الحضور معكم في هذا اللقاء لغرض التشاور والتناصح فيما يتعلق باهتماماتنا المشتركة في تبصرنا لهذه الحياة ومسيرتنا فيها معاً إلى غاياتها.

وينقسم هذا البحث إلى قسمين:

القسم الأول: مذاكرة حول الإيمان والإلحاد.

والقسم الثاني: نصائح في شأن المسيرة الصحيحة في هذه الحياة.

القسم الأول

حول الإيمان والإلحاد

[تمهيد]:

ولنستمع أولاً لأجل التذكير الإجمالي بدلالات هذا الكون الرائع على الصانع القدير أحد أبلغ المقاطع القرآنية وأكثرها تحفيزاً للفكر والتأمل، وهو ما جاء في أول سورة الرعد (الآية:١ ـ ٢٤).

لقد منّ الله سبحانه على العرب خاصة ـ كما منّ على الإنسانية جمعاء ـ بأن بعث فيهم آخر رسول يرسله إلى الناس وجعل بِلُغَتِهم الرسالة الخاتمة التي بعثها على العباد، رسالة رائعة وبليغة يؤكد فيها على متابعة المنطق والعقل ويحفّز فيها التفكير ويحثّ فيها على مراعاة العدل والمعروف.

إنّ جانباً كبيراً أيها الإخوة مما يحتاج إليه الإنسان هو الوعي وتحريك الفكر والانتباه، إننا نرى كثيراً من الأشياء ونشهد كثيراً من الحوادث، ولكننا نعي ونتأمل القليل منها بالاستنطاق والمقارنة والاستشفاف بها لما ورائها.

إن الوعي هو التفات الإنسان إلى الدلالات التي يستبطنها المشهد الذي يقف عليه الإنسان، فقد يقف اثنان بمدارك متقاربة في مشهد ما ذات دلالات واضحة فترى أحدهما ينتقل إلى تلك الدلالة ويعتبر بها ويمرّ عليها الآخر بالغفلة. إننا نجد أمثلة عديدة لهذه الحالة في حياتنا الثقافية والاجتماعية والأسرية والشخصية.

وإن من أوضح الأمثلة لهذه الحالة هي المشهد الكوني أمامنا من السماوات بآفاقها الرحبة والواسعة والأرض بروعة تركيبها

ومكوناتها، والتي هي من خلالها كمصنع كوني كبير مهيأ لاستقبال الحياة والكائنات الحية، ثم ما فيها من التنوع الأحيائي من أنواع النبات والحيوان وهذا الإنسان بقدراته الفريدة وإمكانياته المتميزة بين الكائنات الحية.

إن من مميزات القرآن الكريم فضلاً عن منطقه المتميز في العقلانية هو ارتقاؤه في إلفات الإنسان إلى دلالات هذا المشهد إلى آفاق عالية ومهيمنة على هذا المشهد، واستنطاقه على وجه رائع وتحفيز مشاعر الإنسان بأسلوب بليغ كما نلاحظ ذلك من خلال الآيات المتقدمة.

إن التأمل بإمعان وصفاء في هذا الكون والظواهر البديعة يبين بوضوح أنه صنيعة يد مبدعة وعقل باهر وقدرة فائقة.

ويمكن ترجمة هذا الشعور فنياً إلى بيانات عدة نقتصر على بيانين منها يستمدان من العقلانية الراشدة ومعطيات العلم الحديث.

[دلالة نظم الكون عل الخالق]:

البيان الأول: دلالة النظم في الكون والحياة على موجد مبدع:

إنّ هذا المشهد بما فيه من النظم والتقنين يشير إلى قوة مدبرة وعاقلة؛ لأن أي فعل منظم يستحيل أن يكون موجوداً ذاتياً، ووليد عوامل منتجة تلقائياً، بل لا بدّ أن يكون من نتاج كائن عاقل مهيمن عليها.

ومن ثم نلاحظ أن علماء الآثار حيث يطلعون على ترتيبات معقدة يتوقعون أن تكون هذه الترتيبات أثر حضارة إنسانية أنتجتها، وهذا المعنى أمر بديهي بحسب إدراك العقل الراشد بوضوح.

كما أن العلوم الحديثة لا تزال تكشف بنوداً رائعة وعميقة من هذا النظام.

إن كبار علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء الذين يستكشفون هذه القوانين لأول مرة لا يزالون يبدون عجبهم بهذا الانتظام الكوني والقوانين البديعة الرائعة التي نظمت عليه، ولعل هذا الشعور يكون خافتاً لدينا من جهة أننا نلقن بها ولا نمارس استكشافها واستنباطها.

إن القضاة الذين يستدلون على حقيقةِ واقعةٍ ما من خلال منبهاتها وشواهدها يجدون حيوية في الدلائل لا يجدها الآخرون الذين يستمعون لهذا التوصيف من جهة عدم الممارسة الحية لعملية الاستدلال.

يقول آينشتاين ـ كما ينقله انتوني فلو في كتابه: (ليس هناك إله) ص١٢١ ـ : (لم أجد على الإطلاق تعبيراً أفضل من تعبير إيماني للوثوق بالطبيعة العقلانية للحقيقة والقدرة الخاصة في الوصول للعقل البشري، في حين أن العلم يفتقر لهذه الثقة. إذا كان المبشرون يريدون أن يستفيدوا من ذلك فهذا شأنهم، فليس هناك علاج لذلك).

وقال أيضاً ـ كما في المصدر نفسه ـ: (تديّني يتضمن تقديراً متواضعاً للروح المتفوقة اللانهائية التي تظهر نفسها في أدق التفاصيل

التي نستطيع إدراكها بعقول واهية وضعيفة، هذه القناعة العاطفية العميقة بوجود القوة المنطقية المتفوقة التي تتبدى في الكون الذي لا يمكن الإحاطة به هو الذي شكل فكرتي عن الإله).

الواقع أن الالتفات إلى الانتظام الكوني في مستوى يفي بالدلالة على الصانع القدير ليس مما يحتاج إلى معلومات تخصصية حديثة، بل هو مشهود بشكل عام، فكلنا يشعر أن الكون منظم على سنن وقواعد في المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي والمادي، فالأشياء كلها أسباب ومسببات جارية على أنساق وقواعد مرتبة. فالانتباه إلى هذا الموضوع لا يحتاج إلى العلم بمقدار ما يحتاج إلى الوعي والتأمل والإمعان.

[دلالة حدوث الكون على الصانع]:

البيان الثاني: دلالة حدوث الكون على سبب ورائه:

ويتألف من مقدمتين:

المقدمة الأولى: هل المشهد الكوني ومكوناته أمر أزلي قديم لا أول له ولا بداية؟ فالمادة وما يتكون منها أزلية كانت موجودة منذ الأزل؟ والقوانين الكيميائية والفيزيائية والأحيائية التي تسيّر الكون وتنظّمه وتولّد ملايين الكائنات المختلفة كانت مرتبة وأزلية من تلقاء نفسها وليست أموراً حادثة؟

لا إشكال بحسب العلم أنها لا بدّ أن تكون أموراً حادثة.

والوجه في ذلك: أن من الأمور الثابتة في العصر الحديث أن الكون والحياة أمران حادثان.

فقد جاء في علم الكونيات أن الكون أمر حادث نشأ عن مادة مكثفة للغاية انفجرت انفجاراً هائلاً وولدت أنواع الطاقات والمجرات بمكوناتها، وأن الكون لا يزال يستهلك تلك الطاقة المتولدة ويصرف منها ولا تزال المجرات تتباعد ـ رغم قانون الجاذبية بين الأجسام ـ بعضها عن بعض في انتظام معبر عن نشأته عن طاقة متولدة من انفجار كوني سابق.

وقد يتوقع أن يؤدّي نفاد هذه الطاقة المبعدة مرة أخرى إلى رجوع الكتلة المادية إلى حالة واحدة ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾[1].

كما جاء في علم الأحياء التاريخي أن الحياة حالة وليدة على الأرض بعد أن تهيأت لذلك ـ وقد حدثت بحسب الدراسات قبل ٣,٥ مليار سنة تقريباً ـ حيث لم يكن وضع الأرض من قبل جاهزاً لنشأة الحياة فيها، وهذا امر معروف.

إذن لا شك في أن الكون والكائنات وانتظامها وقوانينها أمر حادث.

---

(١) الأنبياء:١٠٤.

المقدمة الثانية: أن كل أمر حادث يحتاج إلى علة وسبب، وليس من المعقول أن يحدث شيء بلا علة، وهذه الفكرة من القضايا البديهية الواضحة التي يشعر بها الإنسان مبكراً، حيث نجد أن الطفل ذا الخمس سنوات مثلاً إذا صادف لعبة جديدة سأل: من جاء بهذه اللعبة؟ وإذا افتقد لعبة سأل: أين هي؟ ولماذا لا توجد في مكانها؟

فهذا المبدأ يمثل بنية التفكير الإنساني، فالعمليات الاستنباطية في الحياة الشخصية والأسرية والاجتماعية تنطلق من استشفاف ما وراء الحوادث من العلل والأسباب، كما أن الأبحاث العلمية دائماً تحاول من خلال الاستقراء والتجربة فهم علل الأمور الحادثة في المجالات المختلفة، فالطب مثلاً يبحث عن أسباب الأمراض الحادثة وعن نتائج استعمال وتناول الأطعمة والأغذية، منطلقاً من أن كل ما يحدث فإنما يحدث عن علة وسبب.

إذن ليس من المعقول أن يكون هناك شيء حادث من غير علة.

فهذا مبدأ بديهي وواضح في الفكر الإنساني.

وعلى هذا الأساس يعرف بوضوح أن لهذا الكون والكائنات وأنظمتها وقوانينها سبباً موجباً لها مهيمناً عليها.

[تلخيص واستنتاج]:

وفي ضوء هذين البيانين المستمدين من العقلانية الواضحة والبديهيات العلمية نستنتج أن كل مشاهد هذه الحياة تمثل الصانع

القدير، فمشهد الحياة والكون كله أشبه بمعرض فنان نشر فيه لوحاته الفنية، حيث إن الزائرين له يجدون في كل لوحةٍ شخصيةَ هذا الفنان وقدرته الفنية وبراعته في الرسم والنحت والتعبير، أو أشبه بمعرض شركة لنتاجها وصنائعها التي تمثل القدرات الفنية للشركة للواقفين عليها. فالكون كله معرض للصنعة الإلهية بما يدل عليه من قدرة وعلم وحنكة وتدبير، يتمثل بأنواع بديعة ومختلفة من التمثل من أصغر ذرة وكائن حي من الجزيئات والخلايا مروراً بطبائع الحيوانات العجيبة، مثل النمل والنحل وانتهاءً بالكائنات العظيمة من المجرات وما فيها من شموس وأقمار وكواكب.

فوجود الله سبحانه حقاً هو حقيقة واضحة متمثلة في تضاعيف كل ذرة من ذرات الكون وكل كائن من آحاد الكائنات وأنواعها.

ومن ثم حق للواعين لهذه الحياة والمتبصرين فيها أن يشهدوا الله سبحانه في كل شيء من هذه الحياة فيستدلّوا من خلال الأشياء على صانعها وبارئها، فهم ينظرون إليها كنظرهم إلى سائر المشاهد في الأمثلة التي ذكرناها.

وهنا أسئلة ثلاثة:

[ما هو سبب غياب الدلالة على الصانع عن ذهن الإنسان؟]:

السؤال الأول: عن سبب غياب الدلالة على الصانع عن ذهن الإنسان:

إذا كان وجود الله سبحانه بهذا الوضوح فلماذا تغيب هذه الدلالة عن الإنسان، فلا نستحضر عادة الله سبحانه في رؤيتنا للأشياء، حتى أن من أهل العلم بالعلوم الطبيعية كالفيزياء والأحياء والكيمياء من لم يذعن بذلك، بينما إننا لا نجد غياباً للدلالة على الفاعل في المعارض والصنائع؟

[سبب نفسي طبيعي لانطفاء دلالة الأشياء]:

والجواب عن هذا السؤال: إن السبب في ذلك عامل نفسي، وهو أثر الاعتياد في إطفاء دلالة الأشياء لا سيما في الأمور المهيمنة على حياة الإنسان مما يحتاج الإنسان بعض الشيء للارتقاء في التفكير فيها إلى مستوى أوسع.

ونمثل لذلك بفكرة بسيطة وميسرة ومشهودة في أحوال الطفل، حيث إننا نجد أن الطفل بعد أن يعي بعض الوعي يسأل عن الأمور التي يلتفت إلى جدتها وحدوثها ـ انطلاقاً من فكرة: أن لكل حادث علة ـ، فهو إذا وجد ثوباً جديداً أو لعبة جديدة سأل عمن جاء بها، وإذا حصل له أخ يسأل: من أين أتى هذا الوليد؟ وهكذا الحال في كل ما يلفت نظره ويهتم به ويشهد حدوثَه بعد غيابه أو فقدانه بعد وجوده.

ولكننا لا نجد الطفل يسأل عن منشأ وجوده هو ولا عن الأشياء التي عهدها من قبل من ثياب وملاحف وغرفة وأبوين وما إلى ذلك،

بل لو سُئِل عن مثل ذلك من قبل والديه لتعجب، وكأنه يقول إن وجود ذلك أمر طبيعي فلماذا السؤال؟!

مع أنه ليس هناك فرق يُفرض بين الثياب واللعب القديمة وما استجد له مثلاً. ولا بين الأخ الجديد وبين نفس الطفل أو إخوته الذين هم في عمره أو أكبر منه.

وليس السر في ذلك إلاّ أنه أنس بهذه الأشياء ووجدها جاهزة ومرتبة دون تلك الأخرى، فهو لا يستطيع أن يرتقي إلى آفاق عُليا تلغي المعهوديات الذهنية ويقيس الأشياء ببعض من منطلق تماثلها المنطقي.

ولو ازداد عمره ونمى وعيه ترى أنه يتدرج إلى طرح هذه الأسئلة ولا يقنعه تهرب الوالدين عن الجواب. وكذلك الحال لو أن الوالدين أثارا في ذهنه هذه الأسئلة، فترى أن ذهنه يتحفز في التفكير في هذه الأشياء ويرتقي إلى الآفاق فيغلو إثر الاعتياد والمعايشة والمعهوديات الذهنية في إطفاء دلالات الأشياء.

[اكتشاف سبب انطفاء دلالة الأشياء على الخالق]:

وهذا بعينه هو السبب الذي يؤدي إلى عدم انتقال الإنسان إلى دلالات الكون والكائنات على وجود الصانع القدير، فإن الإنسان يولد ويشب ويكبر وهو في أحضان هذا الكون ونظامه ونسقه، فلا

يستثيره ما ينطوي عليه من الحالات البديعة والتناسق المميز والنظام المتماسك، بل يعتبر ذلك أمراً طبيعياً.

ومن ثم ترى أنه يطبق قانون: (لكل حادث سبب) في كل شؤون الحياة الخاصة والعامة وفي الأبحاث العلمية في المجالات المختلفة، إلا أنه عندما يصل إلى الحديث عن منشأ ولادة الكون والكائنات قد يستسيغ أن (يحدث شيء من لا شيء)، مع أنّ بداهة العقل الذي يدرك هذه القضية تشهد على أنه لا فرق بين شيء وشيء، فالحدوث أمر يحتاج إلى سبب، ولن يوجد شيء تلقائياً من غير سبب يؤدي إليه، فهذه الفكرة بديهية للغاية، ولكنها في سائر مجالاتها لم تخفت دلالتها بفعل المعايشة والاعتياد، ومن ثم يذعن الإنسان بها، ولكنه عندما ينتقل إلى أمر الكون والكائنات ونظمها ـ وهي أعظم من كل الحوادث التي يعتبر وجود سبب لها بالبداهة حتى إذا لم يدرك لها سبباً فعلاً ـ فإنه قد يستسيغ أن ينشأ شيء عن لا شيء.

إن هذا التسويغ لا ينشأ عن وجود استثناء منطقي في قاعدة (إن لكل حادث سبب) بأن يقال: (إلا في أصل وجود الكون ونظمه وقوانينه)، فإن هذا الاستثناء لا معنى منطقي له بوضوح. وإنما ينشأ عن جانب نفسي، وهو غياب الشعور بالدلالة في هذا المورد، نتيجة المعايشة والاعتياد، فلا يستطيع الإنسان أن يرتقي من الحوادث المادية التي يشهد حدوثها إلى تأمل مماثل في آفاق أعلى من الوضع المعاش.

[أهمية وعي الإنسان في إحياء تلك الدلالة]:

إن هذه المسألة هي تابعة لمقدار وعي الإنسان وقدرته على الارتقاء بتفكيره وتأمله إلى آفاق عليا، فيعرف أن الأشياء كلها من وادٍ واحد، وأنه لا مغزى للتفريق بين شيء ماضٍ وآخر يتجدد في محضر الإنسان إلا بمقدار ما يكون من الفرق بين ما يعهده الطفل وما يتجدد بمرأى منه.

إن وعي الإنسان بهذه المسألة يحتاج إلى بعض التيقظ والانتباه والتفطن، ولا يحتاج إلى علم غزير وتخصص في أي علم خاص.

إن الرؤية الصافية والصادقة والتأمل الواعي والهادئ والمقارنة البسيطة بين الأشياء كفيلة بأن تؤدي إلى انتقال الإنسان إلى وجود الصانع. وقد ذكر في التراث أن امرأة قروية سُئلت عن مصدر إيمانها بالخالق فقالت: (إن البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلان على العليم الخبير؟!).

إن الانتقال إلى وجود الصانع في الواقع أمر سهل وميسور بهذه البساطة حقاً، ولا يحتاج إلى معادلات صعبة ولا أفكار تخصصية.

ومن الجائز على المتخصص في العلوم أن لا يتصف من الوعي بما يتصف به بعض آحاد الناس، لأن التخصص في العلوم إنما يمثل الاطلاع على قواعد العلوم وقوانينها، والقدرة على توصيفها وتوظيفها، ولا يمثل بالضرورة وعياً بشأن نشأتها ومصدرها.

[مدى العلاقة بين الوعي والعلم]:

إن الاطلاع على العلوم الطبيعية لا يوجب بالضرورة مقدرة للباحث في استنطاق الأشياء عما وراءها، نعم قد يكون الاطلاع على علوم المنطق والفلسفة والمعرفة والنفس والممارسة فيها مساعداً على توجيه الإنسان، لا لأن مبادئ هذا الاستنطاق موضوع تخصصي، بل هو موضوع بسيط، كما لاحظنا في قضية: (دلالة النظم على التعقل) وقضية: (إن لكل حادث سبباً)، ولكن لكي يستطيع أن يرتقي في معالجة النقاط الغامضة والأسئلة المطروحة من منطلق كلي وفوقاني مهيمن على الموضوع وقادر على تصنيف المواضيع والمقارنة بينها واستبيان ما يمكن أن يكون فارقاً أو لا.

إننا نحتاج إلى وعي بدلالات الحوادث كالوعي الذي يحتاج إليه القاضي في استكشاف مصدر الجريمة من خلال توصيف الحالة وملابساتها، ولكنه أبسط من وعي القاضي بكثير، إلا أن عظم المشهد وهيمنته على الإنسان هو الذي يوجب اختفاء هذه الدلالة.

إن الإنسان متى نظر إلى الكائنات بوعي وجدها صورة ممثلة لله سبحانه وقدراته. وإذا نظر إلى نفسه بوعي شعر بانتمائه إلى الله سبحانه، ووقف على شواهد الانتماء ومظاهره بالوجدان، كما يجد الابن خصال أبويه في نفسه عندما يتأمل نفسه وخصاله، كما قال

تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[١].

[اهتمام الرسالات الإلهية بتحفيز فكر الإنسان]:

وقد جاءت الرسالات الإلهية إلى الإنسان لغرض تحفيز إدراك الإنسان وإثارة السؤال في ذهنه عن مصدر هذا الكون والكائنات وسننها فقد وهب الإنسان العقل وقدرة التفكير، إلا أنه مع ذلك وليد هذه البيئة وقوانينها، فهو يألفها ويعيشها ويستأنس بها منذ كان، فيحتاج للارتقاء إلى السؤال عن أصل هذا المشهد إلى شيء من التحفيز والإثارة حتى يفكر في الأمر ويتأمله مليّاً، فإذا به يجده واضحاً جداً، حتى كأنه كشف له الغطاء عن أمر يجده ولا يعيه.

ومن ثم جاء في كلام الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة أن الله سبحانه أرسل الأنبياء لإثارة دفائن العقول وإلفات الإنسان إلى دلالات الكون والكائنات على الصانع القدير، قال (عليه السلام) في أول خطبة من النهج يصف إرسال الأنبياء: (فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ

---

(١) فصلت: ٥٣.

تُحْيِيهِمْ، وَآجَال تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَاب تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاث تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ)[١].

إن شأن الرسائل الإلهية إلى الإنسان من خلال الأنبياء إنما هو إسعاف الإنسان ليعرف آفاق الكون والحياة وما يغيب عن إحساسه بحسب طبيعة وجوده من وجود الله سبحانه، وما يستتبع هذه الحياة من النشأة الأخرى.

ومن ثم نجد الآيات القرآنية معنية بإثارة السؤال في ذهن الإنسان وإلفات نظره إلى هذا البعد في شأن الأشياء لأجل استنطاقها واستثارتها في الدلالة على ما وراءها ـ كما لاحظنا مثلاً بديعاً لذلك في آيات سورة الرعد ـ، ومثلها الكثير من آيات القرآن الكريم، فهي تنطلق في نقل الإنسان إلى آفاق من التأمل والتفكير واستنطاق كل ما حول الإنسان عما وراءه بأسلوب مميز في المضمون والأداء بما يكفي لتحفيز ذهن الإنسان وانتقاله إلى الصانع القدير.

[ما هو أثر اكتشاف العوامل الطبيعية على الإذعان بالصانع]:

السؤال الثاني: عن أثر اكتشاف العوامل الطبيعية على الإذعان بالصانع:

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٢٣ـ ٢٤.

ما هو أثر اكتشاف السنن والعوامل الطبيعية للحوادث والأشياء على الإذعان بالصانع القدير؟ فقد استطاع الإنسان لاسيما في العصر الحديث من اكتشاف العوامل في كثير من الحوادث والأشياء مما كان يجهل سببها من قبل، وربما كان ينسبها إلى فعل الخالق. ولكن بان الآن أن أسبابها طبيعية، وقد استطاع الإنسان من إنجاز خطوات صناعية كبيرة في استثمار تلك السنن والعوامل على ما نشهده في الثورة الصناعية والزراعية الكبرى، فهل في ذلك ما يضعّف الإيمان بالخالق؟

الجواب عن هذا السؤال: إنه لا شك على العموم في أن الكون مبني على نظام الأسباب والمسببات، فهناك سنن كونية فاعلية تؤدي إلى نتائج مناسبة لها في جميع مجالات الكون والحياة، وتلك حقيقة مشهودة للإنسان بشكل عام.

وقد نبه الدين على كثير من تلك السنن وأناط حصول النتائج المتوقعة بالأسباب المناسبة، نظير القاعدة الاجتماعية الواردة في بعض الآيات الشريفة المتقدمة، والتي يحسن استذكارها في الظروف الحالية التي نعيشها من جهة المشاكل التي نكابدها، وهي: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1]، ومضمون القاعدة أن الحدث الاجتماعي لن يحدث إلا بسبب اجتماعي وليس بسبب فردي، ومن

---

(١) الرعد: ١١.

ثم فإن وجود فرد صالح وحكيم ومخلص أياً كان لن يؤدي إلى تغيير اجتماعي للحياة إلى مناحي الصلاح والحكمة إلا بمقدار ما يستطيع هذا الفرد أن يؤدي إلى تغيير المجتمع، وقد جاء في كلام للإمام علي (عليه السلام) أن الناس إذا اتجهوا بعمومهم في الشدائد إلى الله سبحانه فإنه سبحانه يحل لهم تلك الشدة، وقد جاء في التاريخ أن المسلمين في حالات من القحط والجفاف توجهوا إلى الصحراء وأتوا بصلاة الاستسقاء فنزل عليهم المطر بشكل غير متوقع وقد وقع ذلك في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام) والإمام الرضا (عليه السلام) وفي العصور الأخيرة في حوادث مشهودة، يقول الإمام علي (عليه السلام) في كلامه: (وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ)[1].

إذن لا شك في حقيقة ابتناء الكون على نظام الأسباب والمسببات، وهي بديهة من بديهيات حياة الإنسان إلا في موارد خاصة يتوقع الإنسان فيها تدخل عنصر غيبي.

لكن ذلك لا ينفي دلالة الأشياء على وجود الله سبحانه وتجسيدها لقدرته وإبداعه، لأن هذه السنن والنظم كلها أمور مجعولة أودعت

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:٩٨- ٩٩.

في الأشياء وجبلت عليها، ولم تكن لتحدث لولا سن الأشياء على وفقها، وترتيب كياناتها على أساسها.

بل في هذه السنن المنظمة والمعقدة بنفسها دلالة مؤكدة على قدرة الخالق وإبداعه أكثر مما لو أنه سبحانه كان يباشر فعل كل شيء دون توسيط العوامل والأسباب، كما يجد ذلك العلماء الذين يكتشفون القوانين الفزيائية العميقة التي بني الكون عليها كما أسلفنا من قبل.

وقد عبّر العالم الأمريكي (فرانسيس كولنز) المشرف على مشروع الجينوم البشري عن هذا الجينوم بأنّه (كتيّب الإله)، وهو فعلاً كذلك. فأيّاً كانت السنن المفضية إلى تكوّن هذا الخلق البديع، فإنّ هذا الخلق صفحات ساطعة ومضيئة وباهرة من المقدرة الإلهيّة.

وبإمكان الإنسان أن يتأمل ذلك فيفترض طوراً أن شخصاً ما قادر على حمل ثقل ويفترض طوراً آخر أن ذاك الشخص صنع آلة قادرة على حمل هذا الثقل، فالأول يدل على قدرة جسدية ولكن الثاني يدل على قدرة فكرية كبيرة جداً.

وعلى الإجمال.. فليس في وجود سنن تجري عليها الأشياء ما ينفي استنادها إلى الخالق، على أنه مهيمن عليها وموجّه لها إلى وجهتها وقادر على توجيه دفتها إلى حيث يشاء.

[كيف يكتسب الإنسان الوعي اللازم ويثق به؟]:

السؤال الثالث: عن كيفية اكتساب الإنسان الوعي اللازم وثقته به؟

كيف يكتسب الإنسان هذا الوعي ويثق به؟

والجواب عن هذا السؤال: إن كل إنسان مزود بمستوى من الوعي، واستثارة هذا الوعي والوثوق به يتبع الظروف الذهنية التي يعيشها الإنسان.

فقد يكفي لكثير من الناس ممن لم يألف الشبهات والتفاصيل الغامضة أن يتأمل في صفاء هذا المشهد الكوني وروائعه، وقد يحتاج الإنسان إلى إثارة السؤال في ذهنه عن مصدر كل هذه الدقة والتعقيد والجمال، فهو سوف ينتقل إلى الإجابة بنفسه، شأن كثير من الحالات التي يسعف فيها الأستاذ التلاميذ بسؤال ينتقل الطالب من خلاله إلى الجواب لما فيه من تحفيز للفكر، وقد يكون الإنسان قد وقف على بعض الأسئلة والشبهات فيحتاج إلى معالجتها لإزاحتها عن الصدود من حصول الوعي، وفي هذه الحالة يحتاج إلى أن يرتقي الإنسان في موضوع السؤال والشبهة إلى أفق فكري أعلى ومعلومات أوسع حتى يصون أرضية فاعلية الوعي في ذهنه ويكون على بينة وبصيرة تجاه نقطة السؤال.

[ضرورة المتابعة والتحري]:

إن من الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أحياناً أنه قد يطلع على بعض الأسئلة والشبهات، ولكنه لا يتابعها ويبحث عنها في مظان الإجابة عنها، بل يكتفي بالتشكيك والترديد، وهذه حالة لا يُعذر المرء عليها بمعنى أنه يتحمل مسؤولية ما يقع فيه من الخطأ، وقد يكون خطأه في بعض آثاره ونتائجه خطيئة.

إنّ من الصحيح أن يبحث الإنسان عن آفاق الحياة هذه ويستوثق منها، إذ لم يطلب في الدين من المرء أن يذعن على سبيل محض التقليد والتلقين، بل أوجب الدين على كل امرئ أن يكتشف الحقيقة بنفسه في تجربته في الحياة، وليس دور الأهل إلا النصح والإرشاد مثل دورهم فيما يتعلق بالنظام الصحي الطبي والسلوك الاجتماعي الحكيم.

ولكن من الضروري أن يتوسل المرء إلى السبل الصحيحة والقواعد المقبولة للاستيثاق من هذا الأمر المهم.

إنّ كلّ إنسان يعلم بفطرته أن هناك قواعد في البحث عن الأشياء وتحريها، وهو يراعي هذه القواعد في المواضيع التي يهتم بها مثل الزواج واختيار المهنة والتوفيق في الدراسة، كما أن الأعزة السائرين في درب تحصيل العلم والمشغولين بالدراسات الجامعية يعلمون أن للتحقق الجاد في الشيء اقتضاءاته ولوازمه.

قواعد البحث عن الحقيقة وتحريها:

قاعدة الاهتمام بالشيء بحسب مستوى أهميته:

فمن قواعد البحث: الاهتمام بالشيء بحسب مستوى أهميته، فكلما كان الشيء أهم كان أليق بالاهتمام به وتحريه واستقصاء سبل البحث عنه والاستيثاق في شأنه، ونحن نجد في الدراسات الجامعية في مقام إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه كيف يسعى الباحث سعياً حيثياً في كل جهة لأن يتضح له جانب من جوانب الموضوع ويهتدي إلى شيء جديد، وقد يسافر لأجل ذلك ويتغرب عن وطنه وأهله وذويه حيثما كان الموضوع يقتضي ذلك، ويسعى بعناء وتواضع للاتصال بكل من يتوقع أنه ينفعه في إعداد هذا البحث.

إنّ مسألة وجود الصانع ورسالته إلى الإنسان من خلال الأنبياء والإنباء عن بقاء الإنسان بعد الممات ولقائه نتائج أعماله في هذه الحياة مسألة خطيرة جداً، بل هي أخطر المسائل التي يبتلى بها الإنسان على الإطلاق، فهناك فرق كبير بين إنسان ترك ليعيش كما تحلو له ثم يفنى وبين إنسان يثبت عليه مستوى معرفته بآفاق الحياة الغائبة وسعيه في مساعي الخير والفضيلة أو خلافها ويلزمه مضاعفات ذلك بحسبها.

وعليه فليس من المعقول أن يكتفي المرء في البت في أمور مهمة من قبيل صانع الحياة وبقاء الإنسان بعد الممات بالاطلاع على بعض الأسئلة والشبهات أو الاطلاع على أقوال بعض الوجوه والمشاهير، بل عليه أن يكون جاداً في هذا البحث، وليس من العجيب فيما لو أن

همّاً من هذا القبيل أسهر ليالي الإنسان وشغل بال الإنسان وتفكيره حتى يستقر على أساس متين وموثوق كما نجد مثل ذلك منه في اهتمامات أساسية في الحياة مثل الزواج والدراسة بل بعض الاهتمامات الهامشية مثل بعض الصداقات.

قاعدة لزوم التضلع في الموضوع حسب الإثارة التي يطلع المرء عليها:

ومن قواعد البحث أيضاً: أن يكون تأمل المرء في الموضوع مناسباً مع حجم الإثارات التي يطلع عليها، فهناك أسئلة بسيطة للغاية وجدت أنها تذكر كوجه للتوقف والترديد في وجود الصانع للحياة مع أنّ شيئاً من البحث والمتابعة ولو باستشارة بعض أهل الخبرة كفيل بجلاء الموضوع بما لا يبعد عن مدارك الباحث، وسوف نتعرض لنموذج من هذه الأسئلة في نهاية البحث عند استقبال الأسئلة للأعزّة الحضور.

قاعدة لزوم الاهتمام بإنضاج الموقف:

ومن قواعد البحث أيضاً اهتمام الإنسان بإنضاج الموقف، إنّ الإنسان يجد في حياته العمليّة ـ ولاسيّما الكبار في العمر ـ مواقف خاطئة اتّخذها في أيّام الشباب لم تخلُ عن تسرّع وعدم نضج؛ ولكنّه بعد تراكم الخبرة يجد الخطأ فيها واضحاً من خلال نفس الدلائل التي

كانت تتراءى من قبل؛ ولكنّه لم يعِها حق وعيها، على أنّ من الناس من يستنكف من الإذعان بخطئه ويتمسّك بالموقف نفسه إلى نهاية عمره.

ومن الأمثلة الرائعة لهذه الحالة ـ فيما انتبه المرء لخطئه وتسرّعه في شبابه ولم يستنكف عن الرجوع إلى الحقّ ـ: الفيلسوف البريطاني المعروف أنتوني فلو (١٩٢٣ ـ ٢٠١٠م)، فقد شكّك الرجل ـ رغم بيئته المسيحيّة ـ في وجود الصانع مبكراً واستمر على ذلك (٦٥) عاماً من عمره، وألّف حول ذلك وناظر عنه في هذه المدّة حتّى كان يُعتبر أبرز فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين وكانت كتبه تعتبر من المصادر البارزة في هذا الفن، ولكن كانت فيه صفة هي استعداده للرجوع عن الخطأ متى ثبت ذلك، فلم تكن تأخذه العزة في أن يرجع عن الخطأ ويذعن به ويكرّر مقولة سقراط (يجب أن نتبع الحجة أين قادنا الدليل).

لقد انتبه في بعض مناظراته الأخيرة في حياته تدريجاً إلى خطأ دفاعاته عن الإلحاد في مقابل بعض أدلة وجود الصانع، وساعد على ذلك[1] كشف الجينوم البشري ـ الذي هو أمر معقد بديع للغاية ـ فأذعن بوجود الخالق وأشهر ذلك في سنة (٢٠٠٤م) معترفاً على نفسه بالخطأ، ولم تكن انتقالته هذه على أساس تجربة إيمانيّة وروحيّة، فقد

---

(١) لاحظ: لهلا هناك إله، ترجمة صلاح الفضلي ص:٩٢.

كان ذوقه الشخصيّ منذ أن كان مراهقاً بعيداً عن تذوّق العبادة وعالمها مستثقلاً لها، وإنّما كان على أساس قناعة عقلية؛ ومن ثَمّ عبّر عن موقفه بأنّه كان (رحلة عقل) لا (رحلة إيمان).

والملفت في شأنه روح الحقّانيّة والإذعان بالحقّ، فقد كان أستاذ الملاحدة المعاصرين وشيخهم ومناظرهم، وكان عامّة تراثه في الانتصار للإلحاد، ولكنّه عندما شعر بخطئه أذعن بالحقيقة رغم ما أوجبه ذلك من تعييبه والتشنيع عليه في الأجواء العلميّة عامّة والفلسفيّة خاصّة حتى قيل عليه: إنّ موقفه هذا إنّما هو من جهة ما يعرف بـ(الرهبة قبل الموت)، رغم أنّه لم يذعن بنبوّة الرسل والبقاء بعد هذه الحياة حتّى يتأتّى في حقّه هذا التفسير.

وليس المقصود الاستدلال برجوعه إلى إثبات الإله كحجّة في الموضوع، فإنّ من قواعد البحث عن الحقيقة أن يتلمّس الإنسان شواهد الحقيقة بنفسه، ولن يُعرف الحق بالرجال، بل يُعرف الرجال بالحق، ومن أدخله قول الرجال في عقيدة أخرجه رجال آخرون عنها.

ولكن المقصود إلفات النظر إلى أن عدم نضج الرأي والتسرّع فيه قبل حصول الوعي الكافي يمكن أن يؤدّي إلى الخطأ في أمور حسّاسة ومهمّة ومصيريّة، وقد أذعن العالم المذكور بأنّ تشكيكه في الصانع

منذ شبابه كان تسرّعاً واغتراراً غير ضروريّ[١]؛ ومن ثَمّ أذعن بعد الانتباه الأخير بقيمة أدلّة كان يشكّك في دلالتها من قبل[٢]، وعليه فلم تختلف تلك الأدلّة ولكن اختلف الوعي الذي أوجبه الوقوف على بعض تعقيدات الحياة كنظام الجينوم البشريّ.

قاعدة تجرد الإنسان عن أهوائه وميوله في تحريه للحقيقة:

ومن قواعد البحث أيضاً تجرد الإنسان عن الأهواء والميول التي توجب انحيازه إلى اتجاه دون آخر، إننا نجد في حياتنا ابتداءً بالحياة الأسريّة والعائليّة إلى الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة أمثلة عينيّة من تأثّر الإنسان بالأهواء والميول والانفعالات والاستبعادات الأولية في المواقف التي يتخذها، من الضروري في بحث الإنسان عن الحقيقة أن يستوثق من هذه الجهة لأنه يتحمل مسؤولية موقفه تماماً في أمر خطير للغاية.

هذا عن القسم الأول من البحث.

---

(١) قال: (لقد قلت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة أنني وصلت إلى نتيجة بشأن عدم وجود إله بصورة متعجلة جداً، وبشكل مبسط جداً، والذي تبين لي فيما بعد أنها كانت أسباباً خاطئة). (لا إله هناك إله ص:٢٥، ترجمة د. صلاح الفضلي).

(٢) قال: (إن تراجعي عن الإلحاد لم يكن بسبب أي ظاهرة أو حجة جديدة.. وكان هذا نتيجة تقييمي المستمر لأدلة الطبيعة).(المصدر المتقدم ص:١٠٦).

نتيجة البحث تَمَثّل الله في الكائنات كلها تمثلاً واضحاً:

وقد استنتجنا منه أن وجود الله سبحانه هو أمر متمثل في الكون والكائنات كلها وفي الإنسان وطاقاته وقابلياته وإمكاناته جميعاً؛ فالكون كله من أصغر ذرة فيه حتى المجرات خريطة منظمة ومرتبة ومنسّقة للغاية، وهي بذلك تمثل وجود الله سبحانه، كما تتمثل شخصيّة العالِم في كتابه وشخصيّة الفنان في أعماله الفنية وشخصية الرسام في لوحاته والصور التي رسمها، فتلك حقيقة لا ينبغي الجدال فيها.

القسم الثاني

نصائح وتذكيرات عامة

لعلّي لا أرغب أن أقوم مقام الناصح المذكّر لغيري إذا تأمّلت نفسي، ولكنّي قدّرته من قبيل تذكرة بعض الإخوة المشتركين في مسيرة واحدة بعضهم لبعض في توصيف طبيعة المسيرة وغاياتها.

وفي مثل هذه الحالات من الجائز أن يكون الذاكر أولى بالتذكّر من المذكور له، وأدنى منه في الوعي والاعتبار، فهو تحادث في هموم مشتركة في مسيرة مشتركة ومحطّة من محطّات اللقاء.

رسالة الله سبحانه إلى الخلق عن آفاق الكون والحياة:

الوصية الأولى: في الاهتمام بمعرفة الحقّ في شأن الدين والعمل به.

قد تمّ فيما سبق التذكير بوضوح وجود الله سبحانه وأنّه تعالى مشهود على كلّ شيء صغير أو كبير في هذه الحياة، فهويّة كلّ شيء في الكون أنّه من صنيع الله سبحانه، لا لأنّ ذلك مكتوب عليه بكتابة حرفيّة، بل لأنّ كلّ وجوده وأجزائه ونظامه تمثّل الله سبحانه، وهذا ليس تجوّزاً ومبالغةً ولكنّه هو الواقع برؤية واعية وثاقبة للأشياء.

يبقى أن نلتفت إلى أمر جوهريّ متمّم لهذه الحقيقة، وهو: أنّ الله سبحانه هل أرسل إلى الإنسان رسالة يفصح فيها عن نفسه ويثير في الإنسان التفكير فيما يكمن خلف هذا الكون من حقائق ويحدّد له المسيرة الصحيحة التي تنتهي إلى الغاية المثلى من هذه الحياة والتي خطّط سبحانه لها أو لا؟

لقد تأمّلت بنفسي هذا الأمر واطّلعت بعض الشيء على الاتّجاهات المختلفة في الحياة والمؤشّرات التي تعتمد عليها ممّا جاء في التاريخ والتراث في الأديان والاعتقادات المخالفة لها.

ولقد رأيت أنّه لا سبيل إلى إنكار أنّ الله سبحانه بعث في أوقات متفرّقة بعض من تميّز من الناس بنقاء الفطرة وتوقّدها وتلمّس آثار الصانع في الخلق، واستنطق الكائنات عمّا وراءها، بعثه كحالة مميّزة واستثنائيّة برسالة إلى خلقه، ينبّههم على حقيقة الكون وآفاقه وغاياته، وعلى المنهج الصحيح للإنسان في التعامل معها.

وإنّ من جملة هؤلاء حقّاً هو إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (صلوات الله وسلامه عليهم)، فقد جاء هؤلاء برسالة عن الله سبحانه لم يكذِبوا في ادّعائها ولا وهموا بتخيّلها، فقد كانوا موصوفين بالصدق والأمانة والاعتدال النفسيّ ورجاحة العقل والتواضع وصفات أخرى تبعدهم عن تعمّد الكذب أو عن توهّم بهذا الحجم، وجاؤوا بآيات وخوارق لم يكن من سنخ ما يعهده منهم أو من أي إنسان آخر بالرياضات النفسية ولا ما يجده بالسحر والكهانة والشعوذة ونحوها، أدّى إلى إذعان مجتمعاتهم لها رغم عدم استعدادهم للإيمان بها.

وضوح صدق رسالة الإسلام:

وإنّ رسالة الإسلام هي في الحقيقة خلاصة الرسالات الإلهية كلها ومصدّقة لها وهي رسالة حقيقية وصادقة من الله سبحانه، فقد توفّرت شواهد على صدق هذه الرسالة لم تتوفر بحجمها على ما قبلها، حيث إن وجود الكتابة وسرعة التدوين أدى إلى ثبوت تاريخي واضح لمجريات الرسالة ومهمات حوادثها منذ بدايتها حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، ومن أهمّ ذلك أنّه يسّر بوضوح حفظ القرآن الكريم على ما كان يتلوه النبي (صلى الله عليه وآله) بنصّه الحرفي دون أن يكون قد وقع فيه النقل بالمعنى أو يختلط بمضامين ومعلومات تذكر على هامشه كما ربما وقع في الكتب السابقة، فجاء القرآن الكريم كتاباً إلهياً نقيّاً ساطعاً متواتراً لا شكّ فيه.

تميز القرآن الكريم:

وقد تميّز هذا الكتاب فعلاً في منهجه ومضامينه في كل جهة بإذكاء العقل وإثارة الفكر والاستناد إلى المنطق، وتحفيز الضمير، والإنصاف في الطرح وتلمّس دلالات الخلق ونوازع الفطرة وهواجس الإنسان على وجه متميّز، كما تعامل بصدق مع آثار الأديان السابقة فصدّق الرسل السابقين وجعل الإيمان فيها إيماناً برسل الله كلّهم دون تمييز بين سابق ولاحق، وفنّد أموراً خرافيّة ومبتدعة لحقت بالأديان

السابقة مثل ألوهيّة المسيح وأمّه من غير أن يبخس حقّهما أو ينزل بهما عن مستواهما المتميّز في الاصطفاء الإلهيّ.

كما تميّز في أسلوبه بنسق بليغ ومتميّز، لا يزال يجده النخبة من الأدباء في هذا العصر، ولا يرقى إليه أيّ نصّ دينيّ في موضوعه ممّا أثر عن الأديان السابقة، حتّى ما صاغه بعض الأدباء[1] في العصر الأخير لبعض تراث دينه رغم أنّه قد استهدي فيه بالأسلوب القرآني.

وقد تحدى نخبة أدباء العرب وشعرائهم في عصر كانت اللغة العربية في أوج عنفوانها ورقيّها وكانت مضماراً معروفاً في أوساط العرب للتنافس بين الشعراء البارزين حتّى عُلّقت قصائد مميّزة لهم على الكعبة (التي هي مركز القدس والعبادة)، وقد كان المجتمع قد شهد كلام النبي محمد (ﷺ) إلى الأربعين من عمره ووقف على سنخ كلامه، ولم يكن فيما وقف عليه منه إلى حين بعثته شيئاً مماثلاً للقرآن في مضامينه وأسلوبه، علماً أنه (ﷺ) كان بطبيعته شخصية مسترسلة لا غموض فيها ولا إبهام يحيط بها، بل عرف بالصدق والأمانة والترسل والعطف وسلامة النفس وحب البر والخير.

فرسالة الإسلام لا شك أنها رسالة إلهية حقاً. من منطلق التأمل في الحقائق التاريخية التي دوّنت مبكراً، حتى جعلتنا عند استحضارها كأننا نعيش قرب عهد الرسالة.

---

(١) كنز إربا، صياغة الدكتور عبد الرزاق عبد الواحد لكتاب الصابئة.

هذا عن معرفة الدين.

ضرورة الاهتمام والاعتبار بالأنباء الخطيرة في الدين:

وأما عن العمل بالدين: فهو الآخر مما ينبغي الاهتمام اللائق به، حيث التصديق بحقيقة خطيرة ـ بحجم وجود الله سبحانه وبقاء الإنسان في الحياة ليلقى نتاج ما عمله ـ تصديقٌ بأمر خطير شأنه أن يكون الهاجس الأول للإنسان في جميع أحواله، وأن يتحرّى الحقيقة والخير والفضيلة والمعروف في خطواته مهما تيسّر.

فالحياة وفق الدين هي فرصة امتحان حقاً، ومرحلة تخرج، ومضمار سباق، كما قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ◆ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[1]، فهناك ثبت لكل ما يفعله الإنسان ويجري عليه وما يقدمه من برٍّ ويجري عليه من صدق ومصداقية وعفاف وعدالة أو عكس ذلك، وإن كلّ إنسان سوف يلقى نتاج جهده عند لقاء الله سبحانه كاملاً غير منقوص، فيقيم علمه ومعرفته وسعيه، كما قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ◆ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ◆ ثُمَّ**

---

(١) الملك: ١ـ ٢.

يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾[1]، وقال سبحانه: **﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾**[2].

وإنّ لمعرفة الحقيقة ـ من وجود الله سبحانه والحياة الآخرة ـ دخالتها في ما يستوجبه المرء من سعادة وتقدير، كما قال تعالى: **﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾**[3].

إنّ كلّ إنسان سوف يستحضر بعد الموت ما مضى عليه في حياته كشريط عابر، وسوف يشعر بكثير من الغبن والحسرة عندما يجد إيمانه بتلك الحقائق مع إتلافه لوقته وقدراته وطاقته وتفريطه في عمل البر والصلاح والذكر والشكر لله سبحانه فهو يتعجب من مستوى الإهمال والتكاسل والتقاعس الذي جرى عليه رغم المبادئ التي آمن بها.

أهمية اليقين بالآفاق التي يؤمن الإنسان بها في الدين:

إنّ من الحكمة أن يسعى الإنسان إلى البلوغ إلى درجة اليقين بما يعتقده ويكون على بيّنة به حقاً، والفرق بين الاعتقاد والعلم وبين

---

(١) النجم: ٣٩ـ ٤١.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) الزمر: ٩.

اليقين: أن الإنسان المعتقد العالم بالشيء إنما يجزم به وقد لا يرتب الآثار اللائقة بالشيء، فهو يعلم أن الشيء الفلاني ـ كالتدخين ـ ضار ولكنه لا يتجنبه، ولكن الإنسان الموقن يرتب على الشيء الآثار اللائقة به في ميزان العقل ومقياس الحكمة حسب درجة أهمية الشيء وتأثيره على مصيره، فكل اعتقاد وعلم استتبع الآثار اللائقة بالمعتقد والمعلوم فإنه يكون يقيناً، وكل اعتقاد اقترن بالفتور والتقاعس عن ترتيب تلك الآثار فهو علم اختلط بجهل وإيمان شابه الشك والريبة.

وعلى هذا فإن الموقن بالله سبحانه والدار الآخرة من استحضره استحضاراً لا يزيد في عمله لو كشف عنه الغطاء، فهو يستعد للموت استعداد من خاض غماره ويتهيأ للحساب بمحاسبة نفسه استعداد من وقف في موقفه، ويجد سعادة الطاعة وشقاء الخطيئة على حدّ من ذاقهما، كما قال الإمام علي (عليه السلام) عن المتقين: (فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ)[1].

وهذا هو روح العرفان وفق المنظور الديني والإسلامي دون بعض ما يروّج بهذا العنوان من أمور افتراضية وتخيلية.

وعليه يكون شعور الإنسان بالغبن والحسرة بعد هذه الحياة بحجم الفارق بين مستوى اليقين وآثاره وبين مستوى اعتقاده وما رتبه من

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٦١.

الآثار، فلينظر الإنسان إلى ذلك، ويقدّر منجزاته في مضمار الحياة تقديراً صائباً.

ضرورة الاهتمام بحق الله تعالى وحق الخلق:

إنّ علينا أن نهتمّ بأمرين ـ بعد الإيمان بالله ـ:

الأول: حق الله سبحانه بمراعاة مقتضيات الأدب معه والشكر لأنعمه، فقد خلق الله سبحانه الإنسان مزوداً بالعقل ليهتدي إليه وإلى عظمته وقدرته بإعانته، وبالضمير لكي يقف موقف الأدب والشكر والتقدير لنعمائه، وقد أرسل برسالته من خلال الأنبياء ليحفز العقل في الاهتداء إليه ويوقظ الضمير في القيام بما يليق من كائن عاقل وصاحب ضمير تجاه صاحب الإحسان اليه كما مر في كلام الإمام علي (عليه السلام) قوله (وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ)[1].

الثاني: حق خلقه وما حوله عليه في التعامل النبيل والفاضل معهم.

إذن علينا أن نربي أنفسنا على الخير والفضيلة ومقوماتها من الأدب والشكر لله سبحانه ومن العدل والصدق والعفاف وتجنب الأذى والإساءة والعدوان على الآخرين، وعلينا أن نحب للآخرين

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٢٣.

مثل ما نحب لأنفسنا ونكره لهم مثل ما نكره لها، فكل هواجس الإنسان وأعماله وخطواته ومواقفه دخيلة في الدرجة التي يلقى الله سبحانه بها والشهادة التي يتلقاها غداً.

الوصية الثانية: أهمية تحصيل العلم والكدح فيه:

إنّ من الضروري لكل إنسان في هذه الحياة أن يهتم بأمرين:

الأول: معرفة الحقيقة والاعتبار بها على ما تقدم توضيحه.

والثاني: أن يهتم بتحصيل مهنة أو تخصص يكون شغله في هذه الحياة ورأس ماله ومصدر رزقه، وعليه أن يتصف في هذا العمل بالصدق والمصداقية والنشاط والطموح ولا يقنع فيه بالشيء القليل والعمل اليسير.

إنّ الله سبحانه متّع الإنسان بالشباب وما يمثله من عنفوان وطاقات وإمكانات ليكوّن لنفسه أساساً يعتمد عليه في حياته، فلا ينبغي للإنسان أن يتجاوز هذه المرحلة قبل أن يحصل على ما يليق بمواهبه وإمكاناته من تكوين نفسه وترتيب عمله وتنظيم سيرته وسلوكه، فعلى الإنسان أن يكون كادحاً وجاداً ومجتهداً في هذا السبيل، وعليه أن ينافس الآخرين وفق ميسوره حسب قواعد التنافس الشريف، حتى يتفجر ما أودعه الله سبحانه في الكل من نبوغ واستعداد وقابليات ومواهب.

ضرورة الموازنة بين الدنيا والآخرة:

وحقاً ما جاء في الأثر: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[١].

فمن الصحيح أن يكون الاهتمام الأول للإنسان معرفة الله سبحانه والدار الآخرة وما يقتضيه من إذعان وشكر ونبل وفضيلة في العلاقة مع الله تعالى وفي التعامل مع خلقه، إلا أن سُنّة هذه الحياة اقتضت اهتمام الإنسان بالعمل والجد والكدح في سبيل معيشة نفسه وأسرته وأخذ موقعه الملائم في هذه الحياة مراعياً حدود الفضيلة والعدل.

فعلى الإنسان أن يكون تجاه الله والدار الآخرة جاهزاً بجهوزية لو دُعي إلى لقاء الله سبحانه فعلاً استجاب، فهو محاسب لنفسه مستغفر عن آثامه، منتفع بفرصه في الخير والفضيلة، متسابق إلى الخيرات.

ولكن عليه في نفس الحال أن يعمل بجد ونشاط حتى كأنه يخلد في هذه الحياة، لا مغتراً بها وفانياً في أجوائها، بل عاملاً بسننها ومقتضياتها كما خلقه الله سبحانه وأراده.

ومن ثَمّ ذُمّ ترك الإنسان التمسك بأسباب الارتزاق حتى إذا كان للتفرغ في العبادة والاستئناس بذكر الله تعالى وقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه سأل عن رجل فقيل: أصابته الحاجة، قال: (فما يصنع اليوم؟) قيل: في البيت يعبد ربه، قال: (فمن أين قوته؟) قيل:

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٢ ص:٤٩.

من عند بعض إخوانه، فقال (عليه السلام): (والله لَلّذي يقوته أشد عبادة منه)[١].

إذن علينا جميعاً كطلاب في مسيرة العلم أن نكدح لأجل النجاح ونسعى للاتصاف بالعلم وبلياقاته ونطمح إلى التقدم والتميز ونعمل ونجاهد بجدّ في أن نترقى في مراقي العلم والفضل والكمال.

إن الإنسان بمختلف الأقوام التي ينتمي إليها واجد لقابليات واستعدادات مميزة؛ ولكن للعراقيين سَلَف ورجال ينبغي أن يثيروا فيهم روح العلم والتميز، بما كان لهم من حضارة وآباء ساهموا في مختلف حقول العلم إسهاماً ملحوظاً.

إن وجود سلف متميز للإنسان لا ينبغي أن يجعل الإنسان عظامياً يتشدق بأمجاد آبائه في الأسواق الأدبية ويبدي الاعتزاز والافتخار بها؛ بل ينبغي أن يكون حافزاً إضافياً للمرء على أن يكون عصامياً يتعامل بهدوء وصمت عملاً جاداً وكبيراً وثوقاً بنفسه وإذعاناً بما رزقه الله سبحانه من مواهب وطاقات.

فلماذا تكون هذه المجتمعات بعد حين من ريادتها في العلم مقتصرة على استيراد العلم واستهلاك السلع ولا تكون مصنعاً للعلم والتطور والرقي والحضارة كما هي موئل للإيمان بالله سبحانه والأخلاق الفاضلة؟!

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٧٨ ح:٤.

الوصية الثالثة: استحضار موقع أهل البيت (عليهم السلام) وحقهم في الإسلام:

إنّ المتأمل في الأديان من خلال تراثها يجد فيها سلالات مصطفاة في بيوت نمت فيها الفضيلة والنبل والتأدب مع الله سبحانه وعرفان حقه، وقد ذكر القرآن الكريم بعض هذه السلالات كآل إبراهيم وآل عمران، وقد عبّر الله سبحانه عن ذلك بعد ذكر الأنبياء فقال: ﴿**وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[1].

ولم يكن اصطفاء هذه السلالات اصطفاء لكل من ينتمي إليها بنسب، بل لأفراد متميزين فيها كان اصطفاؤهم تفضلاً على مجموع تلك السلالات لو قدروها حق تقديرها ولم ينحو بها مناحي التعصب والافتخار والتعويل على النسب.

اصطفاء النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) جميعاً:

والمتأمل في تراث الإسلام وتاريخه وحوادثه وشخصياته بإمعان يجد أن المصطفى من هذه الأمة هم النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) مجموعاً، كما يدل على ذلك صيغة الصلاة ـ المتفق عليها بين المسلمين التي تتضمن المقارنة بينهم وبين آل إبراهيم المصرح باصطفائهم في

---

(١) الأنعام: ٨٧.

الكتاب ـ وهي: (اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)، كما أن اقترانهم بالقرآن الكريم في حديث الثقلين ـ المتفق عليه ـ وجعلهما عصمة من الضلالة أمر واضح في تميّزهم بين الأمة بالاصطفاء من عند الله سبحانه، فهم مع القرآن الكريم الثقلان في هذه الأمة.

ويكفي حديث الغدير دلالة على ذلك، حيث أن النبي (صلى الله عليه وآله) بعد أن نعى نفسه إلى المسلمين علناً قبل شهرين من وفاته أوقف الحجاج قبل تفرقهم في حجة الوداع فذكّرهم بمكانته في هذه الأمة واحتج عليهم بأنه أولى بهم من أنفسهم كما جاء في الآية الشريفة قائلاً: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟)، ثم قال: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، وفي هذه الواقعة من حيث التاريخ والحضور والتعابير دلالات اجتماعية مؤكدة على نظره إلى تمييز الإمام علي (عليه السلام) عن سائر الأمة وإيجاب اتباعه والرجوع إليه، والقول بأن مراده لا يتجاوز التوصية بمحبته يسلخ الحدث عن مداليله ويناسب حتى لو أن المجتمع كان مبغضاً لعلي (عليه السلام) وناصباً له العداوة. وهل يحتاج المجتمع لو كان مؤمناً بالإسلام فعلاً ـ وليس منافقاً يُظهر الإسلام ـ أن يناصب علياً العداء وقد كان هو الساعد الأيمن للنبي (صلى الله عليه وآله) في مسيرته الرسالية كلها والمبرز من قومه وأهل بيته وقرينه في المؤازرة والمؤاخاة؟ وهل يقتصر مدلول هذا الخطاب الجماهيري بين الأمة بعد نعي نفسه على

التوصية بمحبته فحسب وقد علم أن الناس عند ترقب وفاة الرئيس يكون شغلهم الشاغل الحديث عن خلفه؟ أم كان ذلك تحديداً لمن يخلفه؟

ثم لوحظ على المبادرين من الصحابة للاجتماع في السقيفة عدم إخبار الإمام علي (عليه السلام) بهذا الاجتماع ولا دعوته إليه، في حين أن الأعراف العامة وخاصة العشائرية تقضي بضرورة حضور مثله وهو ابن عم النبي والمميز من أهل بيته وساعده الأيمن وأولى أهل الحل والعقد وفق تلك الأعراف، حتى كأن هناك نية مبيتة على إبعاده عن التأثير في مسار الخلافة حتى امتعض عن ذلك امتعاضاً شديداً وامتنع من البيعة لفترة كما جاء في صحاح المسلمين، وحكي عنه فيها أنه قال: (ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً)[1] أو ما يشبه ذلك.

وهكذا أُخمِد أمره غداة وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة بعد إبعاده عن موقعه في هذه الأمة وقد تعايش مع الأمر طيلة خلافة من سبقه ناصحاً للإسلام ولمن تولى الأمر وللأمة.

---

(١) صحيح مسلم ج:٥ ص:١٥٤.

تبليغ الإمام علي (عليه السلام) لاصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) بوضوح في خطبه في عهد خلافته:

لكنه (عليه السلام) عندما تولى الخلافة لم يسكت عن هذا الأمر ولو سكت عن نقد ما وقع لم يستطع أحد من المسلمين بعد ذلك أن ينتقد إبعاده (عليه السلام) أو يُثبت اصطفاءً لأهل البيت (عليهم السلام) رغم ما تقدم من الأحاديث، ولكنه تكلم في خطبه في الجمعات من على منبر المسلمين عن أهل البيت كثيراً وذكرهم دائماً بلحن يُبدي امتيازهم عن الأمة واصطفاءَهم منها كما تجد ذلك في كثير من كلماته في نهج البلاغة والتي هي على العموم خطب تاريخية ملقاة في مشاهد جماهيرية وليست روايات لآحاد الرواة وهذا الكتاب موضع قبول جمهور واسع من عامة المسلمين، وهي مقرونة بشواهد صدق كثيرة، وأكثرها فيما يتوقع مأخوذة من كتب تاريخية لعامة المسلمين.

لقد كانت الكوفة قد فتحت من قبل في عهد الخلفاء، ووفدت عليها العشائر العربية من الجزيرة العربية واليمن للقتال في حرب القادسية ثم توطنت فيها، وكانت بطبيعة الحال كغيرها من بلاد الفتوحات تنظر إلى الإسلام بنظرة السلطة الفاتحة والتي لم تكن مبنيةً على إبراز اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام).

ولكنه (عليه السلام) إذ وفد بها بلّغ اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) وتظلّم وشكى من قريش كثيراً ـ من غير سبّ وفحش وإقذاع، بل بلغة

التظلم والنقد على وفق ما كان يليق بكرم أخلاقه وسجاياه كما تمثل في خطبه في نهج البلاغة ـ، حتى أصبحت الكوفة موطن التشيّع وعاصمتها وتأثر به أهلها كلهم إن قليلاً أو كثيراً كل حسب استيعابه وبايعوا غداة وفاته ابنه الحسن ـ وفق ما قاله لهم من أنه يمثل الثقل الأصغر في هذه الأمّة ـ وعندما أرادوا إمام حقٍّ لاحقاً استدعوا ابنه الحسين (عليه السلام) في مقابل يزيد، ثم التجأوا إلى علي بن الحسين (عليهما السلام) أو محمد بن الحنفية، ثم مال جمهورهم إلى المبرّزَين من أهل البيت في العلم الباقر والصادق (عليهما السلام) أو الثائرين منهم كزيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) حتى أطبق الولاء لأهل البيت على الكوفة، فكانت الكوفة عاصمة لولاء أهل البيت (عليهم السلام) وكان الكوفيون ثم سائر العراقيين حملة هذا الاعتقاد إلى الأطراف، وجاء بنو أمية فاضطهدوا الناس فتفرقت الشيعة إلى الأطراف والأكناف من بلاد فارس ـ كبلاد خراسان وقم والري ـ ومصر والمغرب العربي وبلاد الشام، فانتشر الاعتقاد بولاء أهل البيت (عليهم السلام).

فإذا كان أهل المدينة حملة الإسلام والشهداء عليه إلى سائر الأقوام، فقد كانت العشائر العربية كالأشاعرة وغيرهم بالكوفة حملة ولاء أهل البيت (عليهم السلام) والشهداء عليه إلى سائر البلاد، وقد علمت طباع أهل العراق في التمسك بعقائدهم وشعائرهم المعبرة عنها ـ كما يجده الناظر في أحوال الجالية العراقية في البلاد المختلفة ـ، وبأهل

الكوفة والعراق انتشر ولاء أهل البيت في بلاد فارس وغيرها، ولا يصح ما قيل من أن مصدر هذا الولاء هو بلاد فارس، بل مصدرها الكوفة بعد خلافة الإمام علي (عليه السلام) ووقع خطبه في أهلها.

فهذه أمور واضحة بالنظر في المشهد العام في التاريخ.

دور أهل العراق في نشر الولاء لأهل البيت في الأقطار:

فأهل العراق هم حملة ولاء أهل البيت (عليهم السلام) إلى الأقطار، وإليهم يرجع الفضل في تبليغ ذلك إلى كل البلاد، وفيهم وجوه أصحاب الإمام علي والتابعين لهم وللأئمة من أهل بيته من الأخيار والصالحين والربانيين، الذين تمسكوا بهديهم في الصلاح والسداد رغم المظلومية والقهر والتشريد، والتزموا بنهج أهل البيت (عليهم السلام) في الأدب والسلم والورع وجروا على طريقتهم في ترجيح أن يكونوا مظلومين على أن يكونوا ظالمين.

هذا ونحن الآن في محضر قبر الإمام علي (عليه السلام)، قبر حُفّ بالبركات، فهو من بيوتٍ تُذكّر بالله سبحانه وبالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة والحياة الآخرة، وتمثل للإنسان القدوة الصالحة من عباد الله الصالحين المصطفين، ولنختم هذا اللقاء بشيء من كلامه الشريف

(عليه السلام) من خطبة له تقع في نهج البلاغة[1] وهي تتضمن وجوهاً من النصيحة والعظة والاعتبار.

نسأل الله سبحانه أن يوفقنا للاهتداء بهديه والاقتداء بسنته، إنه سميع مجيب.

---

(١) نهج البلاغة ج:١ ص:٢١٥ خطبة:١١٠.

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول: يقول (ستيفن هوكينج): إن بالإمكان تفسير وجود العالم عن طريق الانفجار الكبير، ولا حاجة إلى وجود خالق للكون، فما هو تعليقكم على ذلك؟

الجواب: إن المعروف عن نظرية الانفجار الكبير أنها تمثل بداية الكون، وإذا صح ذلك فإن السؤال يقع عمّن أوجد هذا الكون من خلال الانفجار الكبير، لأن كل حادث يحتاج إلى سبب على ما هو بديهي وقد تقدم توضيحه، فلا بدّ لهذا الكون الحادث من علة، على أن الانفجار إنما وقع في كتلة كثيفة خالية عن أية طاقة، ولا بدّ له من مُحدِث، وليس هناك أي عامل داخلي يُفرض في تلك الكتلة يوجب حدوث الانفجار فيه.

ولا يصح القول: إننا لا نعلم كيفية حدوث الكون، فلربما حدث عن لا شيء، ولعل العلم مستقبلاً يستطيع من تفسير ذلك.

ووجه عدم صحة هذا القول: أن قضية عدم إمكان حدوث شيء من دون سبب قضية عقلية بديهية، لا مجال لتدخل العلم فيها لا حالاً ولا مستقبلاً، وهناك فرق بين المساحة التي يتردد فيها العلم ويمكن أن يؤدي فيها إلى اكتشاف جديد، والمساحة التي تحكمها مبادئ ثابتة يتحدد من خلالها الممكن والمستحيل.

إن مجال تخصص العالم الفيزيائي المذكور إنما هو الفيزياء لا الفلسفة، وفي هذه الحالة لن تكون المخارج الفلسفية المقترحة ناضجة عنده بالضرورة كما سبق ذكر ذلك.

السؤال الثاني: يقول بعض أهل العلم بالفيزياء: إن قاعدة وجود سبب لكل حادث لا ينطبق في الجزيئات دون الذرية، وعليه فإن هذه القاعدة لا عموم لها، فما هو تعليقكم على ذلك؟

الجواب: إنّ قضيّة (حاجة كل حادث إلى سبب) هي قضية بديهية بالنظر إلى طبيعة مضمونها، وليست مرهونة في صدقها بالتجربة حتى تختلف بين مجال وآخر.

توضيح ذلك: إن القضايا تنقسم بحسب طبيعة مضمونها إلى قسمين:

الأول: ما تستمد صدقها من طبيعة مضمونها، مثل القضايا الرياضية والهندسية مثل: (١ + ١ = ٢)، فهذه القضايا لا تحتاج في الثقة بها إلى تجربتها، بل يكفي تأملها، ومن الممكن للإنسان تجربة بعضها، كأن يجرب الإنسان إضافة شيء إلى آخر في أشياء مختلفة فنلاحظ أن الناتج منها اثنين، إلا أن هذه التجربة لن تزيد الإنسان علماً وثقة بمضمون القضية.

ومن هذا القبيل عامة القضايا المنطقية والمعرفية والفلسفية، مثل قضية أن (الشيء لن يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد).

وهذا القسم من القضايا بطبيعتها قضايا تجريدية عامة لن تختلف بين الموارد باختلاف خصوصياتها.

الثاني: ما تستمد صدقها من تجربتها واختبارها مثل عامة قضايا العلوم الطبيعية، فإن إحراز صدقها يتوقف على التجربة والاختبار.

وقضية (حاجة كل حادث إلى سبب) إنما هي من القسم الأول، فهي قضية عقلية بديهية يدركها الإنسان منذ الطفولة وهي مبنى جميع أبحاث الإنسان وتحرياته في العلوم المختلفة في شأن الكون والحياة كما سبق إيضاح ذلك.

ومن شواهد ذلك أنك لا تزداد يقيناً بهذه القضية بمزيد من التجارب.

فهذه القضية تستمد صدقها من طبيعة مضمونها بلا حاجة إلى ملاحظة خصوصية إضافية، كما أن القضايا الرياضية تستمد صدقها من ذات الأعداد المفترضة، ولا دخل لخصوصيات المعدود في ذلك، فلا فرق بين كون المعدود جوزاً أو تفاحاً أو بيتاً أو خلية أو جزيئة ذرية أو غير ذلك. فالحادث من حيث كونه حادثاً هو بحاجة إلى سبب سواء كان على الأرض أو في هذه المجرات أو في مجرات أخرى،

وسواء كان الحادث جزيئة دون ذرية أو غير ذلك، فهذه قضية واضحة وبيّنة.

وأما تجويز بعض علماء الفيزياء لحدوث شيء دون سبب فهو ينشأ عن عاملين:

أحدهما: هو أنهم يجدون أحياناً أموراً غريبة لا يعرفون سببها، ومن ثم قد يحتملون أن يكون ما حدث من غير سبب، وليس لأنهم يحرزون وجود الشيء بلا سبب، فإنه لا سبيل للعلم أن يحرز غياب أي سبب حقيقي لما يلحظ من الحالات والظواهر في هذا المجال، لأن العلم لا يحيط في هذا الحقل بكل الأمور المحتملة، كما هو الحال في احتمال وجود المادة المظلمة وكونها هي الجزء الأكثر من الكون.

وعليه فليس هناك حجة علمية على حدوث شيء بلا سبب بل أقصاه ملاحظة أمور لا يعلم سببها، وقد تكون أسبابها معقدة لم يصل إليها العلم في المستوى الحاضر.

ثانيهما: هو أن بعض أهل العلم بالعلوم الطبيعية ليس له خبرة فلسفية يستطيع من خلالها تكييف الفكرة على وجه مناسب ومعقول، ومن ثم قد لا يكون المخرج الذي يفرضه في تفسير الحالة مخرجاً عقلياً مناسباً، وهذا الأمر ظاهرة ملحوظة مكرراً، نظير ما ربما قيل من أن من الجائز أن يكون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد.

إن بعض القضايا مثل قضية (حاجة كل حادث إلى علة) قد تكون قضية بديهية بحسب الوجدان العام ولا حاجة فيها إلى تخصص ولو فلسفي، وإنما يعبر عنها بأنها فلسفية من جهة سنخ المعلومة نظير كون قضية (١ + ١ = ٢) رياضية وإن لم تكن معقدة، لكن مع ذلك فإن الاطلاع الفكري الفلسفي يوجب نضج التخريج المقترح من حيث الالتفات إلى فهم الفكرة وتطبيقاتها ولوازمها وتيسّر المقارنة بين الأشياء وفهم ما يجوز وما لا يجوز فيها.

وقد شكى بعض المبرزين من فلاسفة الغرب ـ كأنتوني فلو الذي تقدم ذكره ـ من التجاء بعض علماء الطبيعة إلى أمور غير معقولة فلسفياً في مقام تفكيرهم حول المخارج المحتملة في شأن بعض المشاكل، ونُقل عن آينشتاين: إن الفيزيائي فيلسوف صغير، في إشارة منه إلى أن علم الفيزياء لن يوجب معرفة فلسفية يمكن بها للشخص طرح تكييفات فكرية ناضجة من المنظور الفكري الفلسفي.

السؤال الثالث: إنه كان من الممكن للصانع أن يتقن خلق الإنسان ـ مثلاً ـ على وجه لا تعتريه الأمراض، وحينئذٍ فهل يصدق أن العالم نتاج العقل والتدبير والحكمة؟

الجواب: إنه ربما كان ذلك ممكناً، فمن الجائز إمكانية خلق الكائنات الحية من النباتات والحيوانات والإنسان على نظام بديل لا

يعرضه المرض والذبول والنقصان والعناد والعناء، ولكن من الجائز أن تكون هناك اعتبارات أخرى مرجحة لخلقها على نظام تكوّن تلك الكائنات فيها عرضة لذلك لما يؤدي إليه من تطور الكائنات وتعاقب الأجيال ووفاء الإمكانات بإعاشة تلك الكائنات واكتشاف فوائد الأشياء وخواصها وامتحان الإنسان أو غير ذلك.

إنّ السؤال عن سبب خلق الله سبحانه الإنسان مثلاً على هذا الوجه دون ذاك أمر لا يمكن أن يؤدي بنا إلى استنتاج محدد.

توضيح ذلك: أنه لا ينبغي الشك في أن لهذا الكون خالقاً يتصف بالحكمة والعقلانية والعلم والتدبير والإبداع والمقدرة الكبيرة كما يتمثل في عظمة الكائنات وتعقيدها، وهذا أمر واضح وبديهي.

وليس من الممكن تحدّي أصل هذا المعنى بسؤالات أو اقتراحات تخطر في ذهن الإنسان في تجويد الخلق، إذ لا يحيط الإنسان بقابليات الأشياء ومقتضيات النظام الكوني والاعتبارات التي لاحظها الخالق في إيجادها.

إن وجود الصانع واتصافه بأوصاف من قبيل ما ذكرنا، بديهة كبرى بالنظر إلى ما يتمثل في الخلق من وجوه لا تعد ولا تحصى من النظم والتعقيد والإبداع، ومهما كان هناك سؤال عن الحكمة في هذا الشيء أو ذاك فإنه لا يمكن أن ينفي تلك القدرة المحسوسة في إيجاد الخلق، كما لو لاحظنا بناء يتصف بهندسة مميزة في أصل كيانه

وتفاصيله ولكننا بالنظر في هذا البناء خطر في أذهاننا تساؤلات حول سر بعض الترتيبات فيها واقتراحات لتجويد بعض خصوصياته، فهل في ذلك ما ينفي كون مخطط هذا البناء مهندساً قديراً وبارعاً؟! أم نتوقع أن لا يكون قد غاب عنه ما يحضرنا ويخطر في ذهننا ولكنه لاحظ اعتبارات لا يسعنا الاطلاع عليها؟

إن من الضروري انتباه الإنسان عند التأمل في شأن الله سبحانه وصفاته وأفعاله إلى أن هناك مساحتين في الموضوع:

مساحة تتصف بالوضوح والجلاء والسطوع، وهو أصل وجود الله سبحانه وعظيم علمه وقدرته وإبداعه مما يتمثل تمثلاً عينياً في الكون والكائنات كتمثل علم العالِم في كتابه وكتاباته وتمثل فن الفنان في رسومه ومنحوتاته وتمثل علم المهندس في الأبنية التي خططها.

ومساحة تتصف بالغموض والإبهام مثل كنه ذاته وصفاته وبعض الاعتبارات الملحوظة في بعض أفعاله ومخلوقاته.

ووجود هذه المساحة في شأن الله سبحانه أمر طبيعي ومتوقع من جهة الفاصل بين علمه وإحاطته وبين مستوى علم الإنسان ومعرفته فإن من شأن مثل هذا الاختلاف في المستوى أن يوجب وجود مساحة مبهمة وغامضة، وليس من المنطقي والمعقول تحدي الجوانب الساطعة والواضحة والمضيئة والبينة بإثارة أسئلة حول الجوانب الغامضة والمبهمة.

إن إثارة الإنسان السؤال حول مساحات معرفية لا يملك أدوات معرفية للتوغل فيها ـ مثل الأمور المتعلقة بالعوالم غير المادية ـ لا يكون مؤدياً إلى اكتشاف شيء مجهول، ولن يفضي إلى تحدي النقاط المعلومة والواضحة.

كما نلاحظ مثلاً أن الطفل إذا تساءل عن أمور هي فوق مداركه فهو لا يستطيع بمجرد إثارة السؤال من الوصول إلى اكتشاف شيء جديد. وتلك قاعدة منطقية عامة واضحة في ميادين الحياة كلها.

إن من النقاط المنطقية في المعرفة الإنسانية هو تحكيم النقاط الواضحة والساطعة على النقاط الغامضة والمبهمة بمعنى تجويز وجود مخرج في مواضع الغموض يلائم ما يتمثل في تلك النقاط الواضحة، ولا يصح العكس بأن نثير الشك في الأمور الواضحة من جهة الغموض في نقاط أخرى.

وهذا المعنى أصل عام وحكيم يقتضيه المنطق وتؤكده الممارسة والتجربة، وله تطبيقات ميسرة في حياتنا العامة والخاصة، فمن عرف صديقاً له صفات حسنة واستوثق منه طيلة مدة كبيرة ثم عرض له موقف يتراءى منه خلاف ذلك فإن من العقل أن يقدر لهذا الموقف المفرد المتشابه مخرجاً حتى إذا لم يخطر هذا المخرج في ذهنه ويتمسك بما يعلمه منه من الأخلاقيات الفاضلة.

وبهذا الأصل نتم الحديث في هذا اللقاء، مكتفين بما تقدم من الأسئلة واللهَ نسأل أن يوفقنا في هذه المسيرة ولا يخرجنا من الحياة حتى يرضى مسيرتنا وسلوكنا فإنه القيّم على الكون والكائنات كلّها في ماضيها وحاضرها وغاياتها. والحمد لله رب العالمين.